عناصر النظام الاجتماعي

الدولة — الحرب — التربية والتعليم — الزواج والنسل — الدين

تلخيص كتاب للفيلسوف برتراند رسل

بقلم يوسف حنا

يصدر الناس في جميع أعمالهم عن احد دافعين ، اما دافع الغريزة او دافع الرغبة — وهذا الأخير يسيطر على الجانب الواعي المتحضر من اعمال الناس . ولكن ليس هذا القسم بالجانب الخطير في حياتهم — وانما الخطير في تلك الحياة هو الجانب المتأثر بحوافز الغريزة لا بدافع الرغبة الى غاية معلومة معينة

ومن دوافع الغريزة ما هو مخرب ومدمر من مثل شهوة الاندفاع الى الحرب وما الى ذلك ، ولكن منها ما ينبعث منه اسمى مظاهر الطبيعة الانسانية كالحب والفن وغيرهما. والناس شديدو الميل الى كثرة التحدث عن حياة العقل ، وأرى انا ان الحياة العقلية شيء جاف ، تمله النفس بسرعة ، وحري بنا ان نكثر نحن من الكلام عن حياة الغريزة المهذبة التي ترمي الى البناء والتعمير ، لا الى الموات والتخريب

وعنصر الصناعة الحاضر يسوق الامم مضطرة اشد الاضطرار الى حياة متأثرة بالرغبة الى غاية معلومة معينة ، لا بالغريزة وحوافزها . وهذا الاضطرار سوف يؤدي الى احدى نتيجتين ، كلتيهما سوء وشر : —

١ — نضوب معين افراح الحياة بنضوب الحوافز الغريزية فيها فتصبح الحياة جافة مجدبة

٢ — خلق ميول وحوافز جديدة في الانسان ليس للارادة الانسانية قوة على التحكم بها والسيطرة عليها ، لانها حوافز غريبة عن الطبيعة الانسانية ، ذلك انها عمل من اعمال الصناعة . . . لا من اعمال الطبيعة والغرائز

وإذا اراد الناس ان يتحاشوا هذه النتيجة السيئة وجب أن يغيروا من عناصر بناء اجتماعهم ومقوماته التي انحدرت اليهم من الماضي القديم ، حتى يستطيعوا أن يوجدوا لهم بيئة جديدة تساعد على تهذيب المنازع الانسانية الغريزية وانمائها وحفظها من سموم حياة العصر الصناعية

وأرى الآن أن أبحث في أهم عناصر الاجتماع الحاضر بحثاً تحليلياً : —

١ — ﴿ الدولة ﴾ : تستند الدولة في كيانها الى فكرة القبيلة المشتقة من فكرة العائلة ، والى الاشتراك في غاية عاطفية واحدة كالدين مثلاً . وقد كان المرجو أن تقوى فكرة الاشتراكية التي حلت محل الدين في الماضي ، وان تسود العالم فتنهزم أمامها سخافة الوطنية . ولكن الحرب العظمى أثبتت عكس ذلك الرجاء . والدولة تستند كذلك الى فكرة الوطنية الدينية ، وأعني بذلك هذا الشعور الذي يغمر نفس الانسان فيجد أن وطنه فوق الأوطان ، وأمته فوق الأمم، مثلما كان اسرائيل يعتقد انه شعب الله المختار . . . . ، والى فكرة خوف الأفراد من الفوضى الداخلية والاعتداء الخارجي فيتكاتفون حول نظام الدولة حفظاً لكيانهم

واشد شرور الدولة كون القوة هي غايتها القصوى ، فكان من جراء ذلك ما تراه اليوم من مظاهر التسليح والاعتداء. وعظم قوة الدولة الحديثة اضاع شخصية الفرد — واشد الامم ديمقراطية في هذا العصر يتولى تصريف شؤونها كتلة سيكولوجية مضطربة ، لا افراد يصدرون في اعمالهم عن ابتكار وابداع شخصي

واهم صفة تفترق بها الدولة الحديثة عن فوضى الهمجية الانسانية الاولى هي القانون فقوة الفرد كانت في الماضي ميزان الحق بين الناس ، اما اليوم فرجع ذلك هو القانون . وهذا تقرير صحيح المظهر فقط ، ولكنه غير صحيح في صميم معناه الداخلي . اما اولاً فلان القوة لا الحق ما تزال صاحبة اليد الطولى في تقرير العدل . . . واما ثانياً فلأن القانون شيء جامد لا يتطور الا بازهاق الارواح وبثورات مدمرة شديدة الاخطار

واذا كانت هذه هي مساوئ الدولة وقوتها فما عسى ان نرتئي من اسباب الاصلاح؟ ما عسى ان نرتئي من اساليب الاصلاح لضمان الحرية وحفظ قوة ابتكار الفرد وأثره في المجموع ضمن حدود النظام ؟

ان حالة الدولة العصرية وضياع الفرد فيها تشبه اشد الشبه حالة الدولة الرومانية لما آذن نجمها بالافول . كان الفرد في الدولة الرومانية ضائع الاثر بين الجموع بخلاف ما كان عليه الفرد في حضارة المدن اليونانية

فهل ترانا نرضى للعالم اليوم حضارة مدن اليونان ؟ لا

نحن نشجع حركة السنديكالية ، بحيث تصبح الدولة هيئة تتكفل بحفظ النظام الداخلي فقط، وبابا في تصريف الشؤون الاقتصادية فتقوم به الهيئات المتحدة المستقلة وامثالها خذ مثلاً التعليم في انجلترا . ألست تراه من الشؤون التي تضطلع به هيئات نظامية

مستقلة لا حق للدولة في التدخل في شؤونها أكثر من الاشراف الادبي — فما بالنا لا نجعل الهيئات الاخرى تتولى تصريف شؤون الدولة كما يتولى التعليم هيئات مستقلة؟

أليس في تقليل قوة الدولة بجعل الهيئات الحرة تتولى تصريف شؤون الامة، تقليلاً لقوتها على البطش من ناحية، وحفظاً لاثر الفرد في المجموع من ناحية اخرى . ثم ما قولك في ضم الدول كلها بعد ان ترمي عنها احمال قواتها ومظاهر التسلح ، في شبه ولايات متحدة ؟

أليس ان عملاً كهذا يبعد اشباح الحروب ثم ينقذ الفرد من الضياع في عظم قوة الدولة؟

٢ — ﴿ الحرب كشيء مشروع ﴾ : كل انسان نابه الاثر في الحياة سواء في خير او في شر ، يحفزه الى العمل : —

ا — الحاح غريزي حتى يستجيب لما يضطرم في داخله من نشاط ورغبة في التفوق

ب — لذة الشعور بالانتصار والتغلب على ما يعترض طريقه من عثرات

ج — كسب احترام الغير

هذا الشعور الغريزي عينه يوجد في جميع الناس على السواء في درجات متفاوتة ، فلكل فرد من الناس حظ من الخيال والميل الى التسامي ؛ ولكن ليس لجميع الناس ذلك الاستعداد الكافي والقوة لعمل ونباهة الذكر . وحين تستفز الدعوة الى الحرب حماسة الناس يثب العامل الخامل في دائرة حياته الجافة حتى يستجيب لالحاح غريزة الميل الى التسامي التي يحسها في داخله والتي اشعلتها فيه حماسة الدعوة الى النضال

ويجب ان تذكر ان في تلبية نداء الحرب استجابة لحوافز المخاطرة والتعاون مع الغير والتضحية في سبيل الوطن وما الى ذلك. والناس لا يثبون خفافاً الى الحرب بحوافز الرغبة الى الغاية المعلومة، وانهم يفعلون ذلك منساقين بحوافز الغريزة العمياء . وليس من مصلحة الانسانية ان تقتل تلك الحوافز الغريزية العمياء، وانما الخير ان نحولها الى ما فيه المصلحة والمنفعة ، فكيف نفعل ذلك ؟

كانت الامبراطورية الرومانية دولة سكون وسلام اذا هي قيست باليونان ايام بركليس، ومع ذلك فقد انتجت اليونان وخلفت ميراثاً كبيراً في حين ان الامبراطورية لم تنتج شيئاً يستحق الذكر امام انتاج اليونان

من الجهل اذاً ان نقتل الحوافز الغريزية في الانسان من مثل تلك التي تسوق الناس الى الحرب والنشاط والعمل ، لان حرارة الحياة تستوجب دوام انتعاش تلك الحوافز

منذ عهد غير بعيد كانت المبارزة الفردية شيئاً مشروعاً يجد فيه المرء استجابة لما يضطرب في نفسه من حوافز غريزية، ثم تغيرت اوضاع الحياة العصرية فلم يعد الفرد

يجد في المبارزة ما يرضي شهوة تلك الحوافز كما كان يجد ذلك في الماضي ، فتحول الفرد والمجموع الى ظواهر اخرى غير المبارزات لارضاء تلك الحوافز والحاحها

واذاً فحوافز الناس الغريزية كانت ترضى بالمبارزة لاشباع شهوتها ، فلما تغيرت اوضاع حياة الناس ، تغيرت ظواهر ارضاء تلك الحوافز ، واصبحت المبارزة المشروعة شيئاً غير مشروع

واوضاع حياة الناس الحاضرة ، من تقاليد دينية تجعل الله اسرائيل مثلاً اله حرب وخصام — واخرى ادبية تشعل حاسة الكبر الوطني . أليس أن شعب اسرائيل هو شعب الله المختار؟ أليس وطني فوق كل الاوطان ؟ — وثالثة اجتماعية وتقليدية وغير ذلك كل هذه يجب ان تتغير وتتبدل حتى ينصرف الانسان عن الالتجاء الى الحرب كوسيلة لاشباع شهوة حوافزه الغريزية وتصبح الحرب شيئاً غير مشروع مثل المبارزات اليوم

٣ — ﴿ العمل ﴾ : احسب ان اهم ما يجب ان ترمى اليه الانظمة السياسية بين الناس هو توفير الاسباب لحفظ قوى الابتكار والنشاط وحرارة الحياة وافراحها في النفس

وهذه القوى مثلاً كانت واضحة المظاهر ، قوية الاثر ، في عهد اليصابات في انجلترا . فلا يستطيع أحد ان ينعت ذلك العصر بالعدالة والطمأنينة — وانما هي مناسبات العصر وظروفه التي ادت الى حفز تلك القوى واشعالها

والانسان يحتاج في اشعال تلك القوى الى الظروف والمناسبات ، لا الى الطمأنينة وخير قياس لاي نظام اقتصادي ، ليس هو في مقدار ما يوفر من اسباب النجاح وعدالة التوزيع بين الناس ، وان كانت هذه الاسباب ضرورية ، وانما مقياس ذلك هو في هل ذلك النظام قمين بانماش غريزة النماء في الانسان وحفز قوة الابتكار فيه ؟

ويشترك كل الناس على السواء في غريزة الثانية تميل الى عمل شيء ما في الحياة ، وخير آثار البشر وشرها ، مصدرها هذه الحاسة الغريزية ، وقوة هذه الغريزة تختلف باختلاف الناس . وكل عمل من الاعمال يتساوق ومطالب هذه الغريزة من العمل والابتكار وحرارة الحياة ، يرضي النفس مهما كان ذلك العمل مضنياً متعباً

واكبر عيوب النظام الاستغلالي الحاضر هو انه يسلب العمال اسباب ارضاء تلك الحاسة ان العامل المأجور لا قول له فيما يعمل ، وانما هو مجرد آلة تدار بيد غيره ، وعلى ذلك فالعمل اليوم وسيلة خارجة عن النفس غايتها الحصول على الاجر ، اما العمل كوسيلة داخلية غايتها ارضاء منازع الانسان الانسانية الغريزية فشيء يكاد يكون مجهولاً اليوم ، الا لدى القليلين من الناس

هذا الجفاف الذي يبعثه نظام العمل الى نفس العامل اليوم ، هو الذي يستفز العمال

صراعاً الى ميادين الحروب هروباً من حياة الخمول التي يحيونها

يكفيك من سوء نظام العمل بالاجر ، وهو النظام الحاضر ، انه يفصل بين العامل وبين غاية العمل ، فغاية العامل اليوم الاجر لا الانتاج . ان الروح الحربية التي تعاب بين الدول اليوم ، هي عينها روح الديكتاتورية التي تعاب بين اصحاب رؤوس الاموال

انا اقول بديمقراطية الاعمال واسقاط ديكتاتورية ارباب الاموال . لكن العمال مشتركين في العمل اشتراكاً فعليًّا بحيث يعملون لغاية العمل وهي الانتاج ، لا لغاية اخرى خارجية هي الأجر .

٤ — ﴿التربية والتعليم﴾ : عمل التربية والتعليم عند الناس معناه ان يصاغ الطفل كما يصوغ الصانع قطعة العجين في مختلف الاشكال والقوالب

والنماذج التي يهتدي بها الناس في تربية الطفل هي تلك التي من شأنها ان تترك كل شيء في الوجود كما هو . . . اما منازع الغريزة في الفرد ، واما قوة ذاتيته الداخلية وتماؤها ، فكلها اشياء لا خطر لها عن الناس

لا شك في ان كثيراً من عناصر التعليم الحاضر سوف تظل ضرورية ، فالانسان سيظل دائماً في حاجة الى تعلم الكتابة والقراءة . . . والى دراسة العلوم الاختصاصية كالطب ، ولكن دراسة التاريخ والدين وما الى ذلك يجب أن تتغير كل التغيير

ومن نكد الدهر أن نرى أن معظم الناس الآخذين بأوفر حظ من التربية والتعليم النظامي ، هم أنقر الناس انتاجاً حراً وابتكاراً ، ذلك أن أساليب التعليم وترمتها تقتل فيهم حوافز الغريزة . وغاية التعليم يجب أن تنحصر في تربية النفس على نشدان الحقيقة ، لا في تربية النفس على الاعتقاد بأن هذا المذهب ، او ذاك النظام هو ، الحقيقة

ولكن تماسك الناس في جماعات وأمم يستلزم هذه الاعتقادات المغلوطة في أن كيت وكيت من المذاهب والنظم هو الحق ؛ وإذن فلنرب الطفل حتى ينشأ جنديًّا صالحاً لأمته . . . . ولو أدى ذلك الى قتل منازع الطفل الغريزية

تؤدي هذه الطريقة الخاطئة في التربية والتعليم إلى إحدى نتيجتين كلتيهما شر ؛ أما الأولى فتنشئة معظم الناس على المعتقدات المغلوطة وقتل منازع الغريزة فيهم ، وأما النتيجة الثانية فالمجادلة من الناس تأبى منازعهم ان تثني تحت ضغط مساوي التربية والتعليم ، فتنشأ تلك الفئة اما مستهترة واما ثائرة تقيم الأرض وتقعدها

والطاعة والتدريب النظامي ظاهرتان قويتان في المدارس ، وكلتا الظاهرتين خطأ . أما الطاعة في المدارس فباعثها الحقيقي كبر الفصول وكثرة عدد التلاميذ ، وهذه يجب

ان تزول مهما كلفت الحكومات من نفقات — فالطفل ليس في حاجة الى سجية الطاعة وإنما هو في أشد الحاجة الى حرية الاختيار

أما التدريب النظامي ، في المدارس فشيء خارجي لا دخل له في منازع الاطفال النفسية ، والحقيقة أن الطفل في حاجة الى سجية المثابرة على السعي في سبيل الغايات ، واخضاع مختلف منازعه الى ارادته وقوة رغبته في الحصول على غاياته . وأساليب التربية والتعليم تنشيء الطفل على التفكير حسب انماط موضوعة ، مع أن الواجب أن ينشأ الطفل على التفكير الحر ، حتى ينعم في كبره في حياة عوالم الفكر والتأمل

وأحسب أن البعض سيقول ، ولكن ليس كل الناس ميالين الى التنعم في عوالم الفكر ، أما أنا فلا اتردد في أن أقرر أن كل الناس ميالون بطبيعتهم إلى ذلك لو هم حظوا بأساليب صحيحة من التربية التي تحبب اليهم الفكر . ولكن الناس وحرصهم على الوجود كما هو موجود ، يخافون الفكر خوفهم من الموت

٥ — ﴿ مشكلة الزواج والنسل ﴾ : تكاليف الحياة الاقتصادية من جهة ، ووعي المرأة لشخصيتها وحريتها من جهة اخرى ، لها أخطر أثر في الزواج والنسل كذلك

فحيناً يمسك الرجل عن الزواج لدواعٍ اقتصادية ، وحيناً آخر تمسك المرأة عن ذلك حتى تحافظ على شخصيتها وعلى حريتها التي تعيها اليوم اضعاف ما كانت تعيها في الماضي

ولكن من من الرجال والنساء يفكر هذا التفكير ثم يمسك عن الزواج ؟ أليس ان الذين يفعلون ذلك هم الطبقة المستنيرة المفكرة ؟ ينتج عن ذلك ان الزواج والتناسل ينحصران او يكادان ينحصران بين الطبقات الخاملة ، القليلة الحظ من التفكير — فاذا انتجت هذه الطبقة الخاملة جيلاً من المفكرين امسك هذا الجيل عن التناسل ثم قضى دون ان يخلف نسلاً . وانحصار التناسل بين هذه الطبقات هو علة اسقاط الامم وانحطاطها . هكذا اسقطت الدولة الرومانية ، وهكذا ستسقط فرنسا وانجلترا والمانيا اذا لم تتدارك الخطر

الخير كل الخير في ان تتولى الحكومات تربية الطفل حتى تزول بذلك موانع الرجل الاقتصادية عن الزواج وان يسعى الناس الى ايجاد معتقدات دينية جديدة تستند اليها علاقة المرأة بالرجل والرجل بالمرأة بحيث تجد فيها المرأة متسعاً لانماء شخصيتها وحريتها ، ويجد فيها الرجل متسعاً لارضاء النزعات الجنسية من غير طريق التحكم والتعسف

٦ — ﴿ الدين والكنيسة ﴾ : السياسة هي مجموعة تقاليد وانظمة تستند في كيانها الى فكرة المصلحة ، وهكذا الدين كما يفهمه الناس ، بل الدين حسب هذا الفهم شيء أكثر تزمتاً من السياسة واشد شروراً منها

واول خطوة يحتاج اليها الانسان في تطور فكرة الدين لديه هي في ايجاد قوانين اخلاقية تستند في كيانها الى الخلق والابداع لا الى الطاعة والرضوخ — والى الامل والرجاء لا الخوف والهيب — والى اشياء تنفذ وتتم هنا ، لا الى اشياء خيالية لا تنفذ ولا تتم في عالمنا نحن .

واحسب ان حياة الانسان اثمن من ان تكون مجرد محاولة لمداراة غضب الآلهة وصرف النظر عن هذا العالم الذي هو ميراثنا الحق، وواجبنا المقدس أن نعيره كل العناية

وكلمة « الدين » لها معان كثيرة مختلفة باختلاف أطوار التاريخ ، ولعل اوضح معانيها هي أن الرجل الديّن هو ذاك الذي يراعي تعاليم الكنيسة وقوانين الدين الأخلاقية ، أما ما موقفه ازاء العالم وما فيه ، فأشياء لا خطر لها عنده

ثلاثة أشياء تسيطر على حياة الناس — الغريزة والعقل والروح

وحياة الغريزة هي الحياة التي يشترك فيها الانسان مع الحيوانات من حيث حفظ النوع والأثرة والاجتماع وما إلى ذلك

أما حياة العقل فهي حياة السعي المتواصل لنكشف عن المعرفة المجهولة، والتفكير في عوالم هذه الحياة هو تفكير غير شخصي في الغالب — ذلك أن المرء الذي يسعى في سبيل الكشف عن المعارف يشغل فكره بشيء آخر غير شخصه هو

وحياة الروح تدور حول الشعور غير الشخصي ، كما أن حياة العقل تدور حول التفكير غير الشخصي ، والفن يتبع حياة الروح ولو أنه يتصل أقوى الاتصال بحياة الغريزة ، أعني أن الفن يصدر عن الغريزة وينمو في عالم الروح ، أما الدين فيصدر عن الروح ويحاول أن يتحكم بالغريزة

وحياة الناس هي تنافر متواصل بين حوافز الغريزة والعقل والروح . والمشاهد حتى اليوم أن التنافر بين الدين وبين حياة الفكر كان ولا يزال شديداً ، فالكشف عن المعرفة كان دائماً عملاً مخالفاً لتقاليد الدين ، وحسبك أن ترجع الى عصر النهضة لترى صدق ما أقول . وأرى أنا أن الدين الذي تحتاج اليه الانسانية هو ذلك التساوق المتين بين حياة الغريزة والعقل والروح ، ويجب أن يقوم بالتبشير بين الدين الجديد رجال لا يحترفوا . . . مهنة لهم . . . وإنما يعملون في الحياة كما يعمل غيرهم حتى يختبروا حياة الناس اليومية ثم يبشرون بتعاليمهم المستندة الى الابتكار والتجدد ، والأمل والرجاء ، بعيدين عن تحكم التقاليد والقوانين الأخلاقية المتحجرة ، خارجين عن اسوار دور العبادة وما ينبثّ في جوها من تعاليم جافة جامدة قد فقدت مرونة الحياة